بسم الله الرحمن الرحيم

٢٣

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

(عبس : ٢٤)

هذه الآية الكريمة جاءت فى أوائل النصف الثانى من «سورة عبس»، وهى سورة مكية، وعدد آياتها اثنتان وأربعون بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قيمة إسلامية كبرى مؤداها أن التفاضل بين الناس لا يكون إلا على أساس من تقواهم لله، بغض النظر عن أنسابهم، وإمكاناتهم المادية، ومستوياتهم الاجتماعية، وجاههم، وسلطانهم، وأعمارهم، وألوانهم، وأجناسهم.

وهذه القيمة الإنسانية أراد الله تعالى غرسها فى قلوب وعقول الناس منذ أول أيام الدعوة الإسلامية المباركة، ووضحها بواقعة حدثت مع رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة حين انشغل بدعوة نفر من زعماء قريش إلى دين الله الخاتم، وأعرض عن صحابى كفيف، من أوائل المسلمين، جاء يسأله فى أمر من أمور الدين، فأنزل الله ـ تعالى ـ فى مطلع هذه السورة المباركة عتابا لرسوله ونبيه الخاتم ﷺ حتى يؤكد الحقيقة التى أنزلها فى مقام آخر من محكم كتابه بقوله ـ عز من قائل ـ :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن أجل إقرار هذه القيمة الإنسانية، أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من فوق سبع سماوات هذا العتاب الشديد لأحب الخلق إليه، وأقربهم إلى رضوانه، لتبقى هذه القيمة حاكمة للمجتمعات البشرية إذا أرادت أن تعيش حسب منهج الله، وأن تحقق رسالتها فى هذه الحياة. ولذلك حفظ هذا العتاب فى كتابه الكريم الذى سيظل يتلى إلى يوم الدين. تذكرة للناس بهذه القيمة الإنسانية النبيلة.

وتلمس السورة الكريمة جانبًا من جوانب جحود الإنسان لخالقه ـ سبحانه وتعالى ـ وتذكره بأصله ونشأته، وتهيئة الله ـ تعالى ـ له، وتيسير السبل أمامه، كما تذكره بنهاية حياته الدنيوية بالموت والقبر، ثم إعادة بعثه ونشره ليلقى حسابه وجزاءه فى الآخرة، وعلى الرغم من ذلك كله فإنه لايتقيد فى الغالبية العظمى من أحواله ـ بأوامر الله ولا يقوم بتنفيذها.

وترد الآيات على هذا الجحود الإنسانى باستعراض عدد من دلائل القدرة الإلهية المبدعة فى خلق الإنسان، وإعداد طعامه وطعام أنعامه، وتذكره بالآخرة وأهوالها وشدائدها وذلك باستعراض عدد من مشاهدها، وتصوير انعكاس ذلك على الخلائق الذين سوف يتمايزون فيها إلى مؤمن مستبشر سعيد، وكافر شقى تعيس.

عرض موجز لسورة عبس

تبدأ السورة الكريمة بالإشارة إلى واقعة الصحابى الجليل «عبدالله عمرو بن قيس المعروف باسم ابن أم مكتوم» فى مكة المكرمة قبل الهجرة بعدة سنوات، وكان الرجل مكفوف البصر، ولكنه كان مفتح البصيرة فبادر مبكرًا بقبول الإسلام دينًا. وجاء فى يوم من الأيام إلى رسول الله ﷺ يسأله فى أمر من أمور الدين، والرسول منشغل فى مناقشة عدد من زعماء قريش ودعوتهم إلى دين الله الخاتم، لعل الله ـ تعالى ـ أن ينصر بهم هذا الدين الذى كانوا يقفون منه موقف المعاداة والصد، وفى هذه المعمعة كان ابن أم مكتوم يلح فى توجيه أسئلته، والرسول ﷺ يتمنى لو انتظر قليلا حتى يتمكن من الوصول إلى قناعة مع هؤلاء النفر من رءوس قريش، ولكن ابن أم مكتوم استمر فى إلحاحه بالسؤال، فعبس وجه رسول الله ﷺ، وتولى عنه، وإن لم يدرك هذا الكفيف ذلك. إلا أن الله ـ تعالى ـ أنزل وحيه بهذه السورة المباركة يعاتب فيها سيد المرسلين عتابًا شديدًا بخطاب الغائب أولا، ثم بتوجيه الخطاب إليه مباشرة والذى يقول فيه:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس ١ : ١٦].

وبعد نزول هذه الآيات كان رسول الله ﷺ يكرم ابن أم مكتوم كلما رآه، ومن ذلك الإكرام كان استخلافه على المدينة المنورة مرتين، وقد كان من المهاجرين الأوائل إليها، واستشهد بالقادسية ـ رضى الله تبارك وتعالى عنه وأرضاه ـ.

كذلك يروى عن رسول الله ﷺ أنه ما عبس فى وجه فقير قط بعد هذه الواقعة، ولا تصدى لغنى قط، ويروى لنا سفيان الثورى رضي الله عنه أن الفقراء كانوا أمراء فى مجلسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن الدروس المستفادة من هذه الواقعة أنه يجب على الداعى إلى دين الله ألا يخص بالدعوة أحداً دون أحد، فالله ـ تعالى ـ وحده هو الذى يعلم أين يكمن الخير، والدعوة إلى دين الله الخاتم يجب أن تكون للناس كافة بغض النظر عن أعراقهم، وأنسابهم، وأجناسهم، وأعمارهم، وإمكاناتهم المادية، ومستوياتهم الاجتماعية، وغير ذلك من الفوارق الطبقية التى لايقرها الإسلام ولا يرضاها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أساسا للتفضيل بين خلقه.

ولقد كان فى إعلان رسول الله ﷺ لهذا العتاب الإلهى الشديد لشخصه الكريم أبلغ الشهادات على صدق نبوته، ونبل رسالته، وكمال عبوديته لله الخالق، فلا يقوى على إبراز مثل هذا العتاب للناس كافة، وعلى مر الدهور والأيام إلا نبى كريم، يعرف حقوق ربه عليه، وقدسية الوحى الذى يتنزل إليه بكلمات الله التامات المنزهة عن الحذف أو الإضافة أو غير ذلك من المداخلات البشرية التى تعرضت لها الرسالات السماوية السابقة جميعًا ودون استثناء واحد، لأن حفظها ترك لأتباعها فضيعوها.

كذلك كان فى إعلان هذا القرار الإلهى فى وجه زعامات قريش، والمسلمون فى مكة المكرمة قلة مستضعفة وسط بيئة جاهلية، تقتلها العصبيات العرقية العمياء، وتحكمها الأعراف الظالمة الجائرة، كان فى ذلك واحدة من أعظم الشهادات على أن هذا النبى والرسول الخاتم ﷺ كان موصولاً بالوحى، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، ومؤيداً بتأييده الذى لا يضام.. !!

وتستمر الآيات فى تأكيد هذا القرار الإلهى تذكرة من الله ـ تعالى ـ لمن شاء أن يتذكر، خاصة أن التذكرة مدونة فى صحائف القرآن الكريم، وهى صحف مكرمة عند رب العالمين، مرفوعة مطهرة بتكريم الله لها، وحفظه إياها، وأشارت الآيات إلى أن هذه الصحائف مطهرة من أية مداخلات وضعية، أو تحريفات بشرية، أو محاولات للتزييف كالتى أصابت جميع الرسالات السابقة، أما الرسالة الخاتمة، فلكونها خاتمة، فهى محفوظة ﴿ بأيدى سفرة (١٥) كرام برررة ﴾ وهم الملائكة المكرمون.

وإذا ما عاشت المجتمعات الإسلامية بهذه المعايير الربانية التى ترجح أهل الصلاح والتقوى والورع على أهل الفساد، والاحتيال، والشراهة والطمع، فإنها تحقق منهج الله فى الأرض وتقيم عدله عليها. وعلى العكس من ذلك فكلما ساد الظلمة الفجرة من أهل الضلال والخبث، وأهل التسلق من أجل الوصول إلى مقامات السلطة، وابتزاز العباد، ونهب المجتمعات، وإذلال الناس، والتجبر على الخلق، كلما فسدت المجتمعات وانحرفت عن منهج الله فشقيت وأشقت.. وإذا ما سادت معايير السماء على معايير الأرض سعدت المجتمعات الإنسانية وأسعدت، ولطالما انعكست الأوضاع، وانقلبت الموازين، وسادت معايير الأرض على معايير السماء.. فاضطربت القيم، واختلت المفاهيم، وساد الرعاع، وتكلم فى الناس الرويبضة، وصُدِّقَ الكاذب، وكُذِّب الصدوق.. وائْتُمِنَ الخائن.. وخُوِّن الأمين... فشقيت المجتمعات الإنسانية وأشقت...!!

وتتتابع الآيات بعد ذلك فى تعجب ساخر من موقف الإنسان الذى يكفر بالله، ويتجاهل ضرورة الإيمان به، ويُعْرِضُ عن هدايته، ويستعلى على رسالته وعلى الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، فَتُذَكِّره الآيات بأصله ومنشئه، وضعفه فى بدايات وجوده، وحاجته إلى رعاية ربه فى مختلف مراحل نموه، وفى جميع لحظات وجوده، وقد أعطاه الله ـ تعالى ـ العديد من المواهب والقدرات، ويسر له سبل الحياة، وطرق الهداية، والإنسان غافل عن ذلك كل الغفلة، فلا يؤدى ما عليه لله ـ تعالى ـ من حقوق، ولا يقوم بدوره على الأرض كما رسمه له خالقه، فما أكفره بنعم الله، وما أجحده بأفضال خالقه عليه...!!

وتعبيراً عن هذا الموقف الجاحد من الإنسان الكافر والمتنكر لأفضال الله ونعمه قال ـ تعالى ـ: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٣].

ولفظ قتل هنا دعاء على الكافر، ولعن له، وهو من الله ـ تعالى ـ غضب عليه فى الدنيا، وعذاب ومهانة واقعان به لا محالة فى الآخرة، فمهما طال عمره فأخرته الموت والقبر تحت تراب الأرض، وليس له بعد ذلك إلا حساب القبر المرير، ثم البعث وأهواله، والحساب ودقته، ثم الخلود فى نار جهنم.

وتستدل السورة الكريمة على صدق ما جاء بها من حق بالإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة، وتقدير كل صفاته وجنسه، وأجله ورزقه، وتيسير سبل الحياة له، وسبل الهداية أو الضلال حتى يكون سعيدًا أو شقيًا باختياره وإرادته. والنطفة فى اللغة هى القليل من الماء الذى يعدل قطرة، ويقصد بها كل من نطفتى الرجل والمرأة واللذين إذا اتحدا كونا «النطفة الأمشاج» أى المختلطة (اللقيحة)، ويستمر مصطلح «النطفة» و«النطفة الأمشاج» حتى تصل مراحل نمو الجنين إلى طور الحرث ويقصد به الانغراس فى رحم الأم. وبعد خروج هذا الجنين إلى الحياة الدنيا، وانقضاء أجله، قدر الله ـ تعالى ـ عليه الموت ثم البعث والنشور، والحشر والحساب، ثم الخلود فى الحياة الآخرة إما فى الجنة أبدًا أو فى النار أبدًا، إلا أن يشاء الله.

وأمر الإنسان فى بدء خلقه كأمره فى يوم بعثه الذى يصفه المصطفى ﷺ بقوله الشريف: **«ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا ويبلى،إلا عظما واحدا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»**(١).

وعلى ذلك فإن مصير الإنسان مرهون بيد خالقه من لحظة خلقه نطفة متناهية الضآلة فى الحجم إلى خروجه من بطن أمه طفلاً لا يعلم شيئًا، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ثم مروره بمختلف مراحل الحياة حتى الوفاة، فالله ـ تعالى ـ هو الذى خلقه فى صلب أبيه حين شاء، وأخرجه إلى مسرح الحياة حين شاء، وحيث أراد، وهو ـ سبحانه ـ الذى أنهى حياته حين شاء، وحيث أراد، وأبقاه فى قبره إلى أن يشاء، فإذا جاءت الآخرة بعثه ربه من بين التراب كيف يشاء، وأنشره ليوم الحساب والجزاء، حيث فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، وإنها لجنة أبدا، أو نار أبدا كما أخبر الصادق المصدوق ـ عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

وانطلاقًا من ذلك فعلى كل إنسان عاقل أن يستعد ليوم الحساب، وأن يجدَّ من أجل النجاة من أهواله،فالحياة ليست للهو والعبث، ولايمكن أن تقضى سدى،فللإنسان فيها رسالة ذات وجهين: عبادة الله ــ تعالى ــ بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض بعمارتها، وإقامة عدل الله فيها.

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (٤٩٣٥)، ومسلم (١٤١/ ٢٩٥٥).

والناس فى غالبيتهم الساحقة تغيب عنهم هذه الحقيقة، فيهدرون أعمارهم وهم عن الحق لاهون حتى ينتهى بهم الأجل، فيفاجأون بلحظة الحساب، وما أشقها من لحظة . . !! لذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بصيغة الاستفهام الاستنكارى التوبيخى، التقريعى للإنسان الكافر، بمعنى ما الذى حمله على الكفر بالله؟، أو ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسان الله ـ تعالى ـ إليه، والصيغة فى الحالين فيها التعجب من شدة كفره، والتأكيد على استحقاقه العقاب بأشد ألوانه . . . !!

ولذلك أتبعت هذه الآيات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ **كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ** ﴾ [عبس: ٢٣].

ولفظة (كلاّ) هنا بمعنى (حقّا) إنه لم يفعل ما أمره به الله ـ تعالى ـ فاستحق العذاب الذى حذره ـ سبحانه ـ منه عن طريق الأنبياء والمرسلين.

وبعد ذلك ينتقل السياق إلى استعراض واحدة من آيات الله الكبرى فى الخلق، ألا وهى إعداد الطعام المناسب، والكافى، واللازم لكل حى على الأرض، ومن هؤلاء: الإنسان وأنعامه، ولذلك تلفت الآيات نظر هذا الإنسان الجاحد إلى تلك الحقيقة الواقعة، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

والأمر بالنظر هنا ليس المقصود به مجرد النظر للإبصار، ولكنه النظر للاعتبار؛ وذلك لأن الطعام ضرورة من ضرورات الحياة، ولازمة من لوازمها، كما أن الماء ضرورة من ضرورات الحياة ولازمة من لوازمها، ولا يملك إنسان عاقل الادعاء بأن له يداً فى دورة الماء حول الأرض، والتى لا ينشئها، ولا يحركها إلا الله ـ تعالى ـ بعلمه وحكمته وقدرته، وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ فى الحديث القدسى الذى يرويه عن رب العزة والجلال: «... **أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال:**

مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بى،كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى،مؤمن بالكوكب» (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم: «... ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله...»(٢).

ولا يملك إنسان عاقل كذلك الادعاء بأن له يداً فى عملية إنبات البذور، ولا فى شق الأرض لإخراج البادرات النباتية من داخلها.. !! ولايستطيع الادعاء بأن له يداً فى إخراج نوع واحد من أنواع نبات الأرض والذى تقدر أنواعه المعروفة لنا بأكثر من ثلاثمائة ألف نوع. ويمثل كل نوع من هذه الأنواع ببلايين الأفراد، وكل نوع من هذه الأنواع، بل كل فرد من الأفراد له من صفاته الشكلية، والتشريحية والوظائفية ما يميزه عن غيره.

وقد ضرب الله ـ تعالى ـ لنا فى سورة عبس من نماذج النباتات ما شمل الحبوب، والأعناب، والعلف الرطب للبهائم، والتبن الجاف، والزيتون، والنخل، والحدائق الغُلْب أى الملتفة الأشجار العظام الغليظة، وأشجار الفاكهة، والكلأ، والمرعى، وهذه النماذج المختارة فى سورة عبس تكاد تغطى كل ما يحتاجه الإنسان وأنعامه ودوابه من النباتات الرئيسة.

وخاتمة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا، وخاتمة تمتعه بمباهجها وزخرفها هى الموت، والقبر، ثم البعث، والعرض الأكبر أمام الله ـ تعالى ـ للحساب، ثم الخلود فى الحياة القادمة إما فى الجنة أبداً أو فى النار أبداً، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى ختام سورة عبس ما نصه:

﴿ فإذا جاءت الصَّاخَّةُ (٣٣) يوم يفرُّ المرءُ من أخيه (٣٤) وأُمّه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) وُجُوهٌ يومئذ مُسفرةٌ (٣٨) ضاحكةٌ مُستبشرةٌ (٣٩) ووُجُوهٌ يومئذ عليها غبرةٌ (٤٠) ترهقها قترةٌ (٤١) أولئك هم الكفرةُ الفجرةُ ﴾ [عبس: ٣٣ـ ٤٢].

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (٨٤٦)، ومسلم (١٢٥/ ٧١).
(٢) [صحيح] البخارى (٤٦٩٧).

والصاخة هى النفخة الثانية فى الصور، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان من شدتها وقد استخدمت اللفظة كاسم من أسماء القيامة، التى ـ من تعاظم أهوالها ـ تجعل الإنسان يفر من أقرب الناس إليه، وألصقهم به . . !!

وبعد الحساب ينقسم الناس إلى أصحاب الوجوه المؤمنة وهى وجوه مسفرة أى مشرقة، مضيئة، ضاحكة مستبشرة بتكريم الله ـ تعالى ـ لها فى الجنة، وقد بشرت بها، ووجوه أخرى للكفرة الفجرة، الذين كفروا بالله وبرسالته الخاتمة، وخرجوا على حدوده، وانتهكوا حرماته، وقد علاها الندم والحزن، وارتسمت على قسماتها بوادر الحسرة واليأس، وغشيتها ملامح الذل والعار، وقد علمت أن مصيرها إلى النار . . . !! وعلى هذه الوجوه المؤمنة، وتلك الوجوه الكافرة ترتسم مصائر العباد فى الآخرة، وبذلك وضع الله ـ تعالى ـ لنا فى مطلع سورة عبس معياراً من معايير الحق، من التزم به فاز فى الدنيا والآخرة، ومن ضيعه شقى فى الدنيا والآخرة، ووضع لنا فى خاتمة هذه السورة المباركة صورة من صور الثواب والعقاب فى الآخرة، فالتقى أول السورة بخاتمتها فى تزاوج عجيب يشهد لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة التى أودعتْ كتابه الخالد، هذا الكم من حقائق الوجود فى كل من الدنيا والآخرة.

من ركائز العقيدة فى سورة عبس

من الركائز العقدية التى ألمحت إليها هذه السورة المباركة ما يلى:

(١) الإيمان بالله ـ تعالى ـ ربّاً، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيّاً ورسولاً.

(٢) التسليم بوحدة الجنس البشرى، وبالأخوة الإنسانية، ومن ثم فإن أساس المفاضلة بين الناس يجب أن يكون هو تقوى الله ـ تعالى ـ وخشيته، وحسن عبادته، وليست المستويات الاجتماعية، ولا الإمكانات المادية الزائلة من مال، وجاه، وسلطان.

(٣) اليقين بأن وحى السماء إلى العباد حق، تنقله الملائكة الكرام البررة إلى رسل الله المختارين فى الأرض ليبلغوه إلى الناس، كل إلى أمته، فلما بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كانت رسالته هى الرسالة السماوية الخاتمة، وكانت للناس جميعًا، بغض النظر عن أعراقهم، وألوانهم، ولهجاتهم المختلفة.

(٤) التصديق بأن القرآن الكريم هو آخر صور الوحى المنزلة من الله تعالى هداية للإنسان، وتذكرة له، فمن شاء منهم اهتدى بهديه، ومن لم يشأ فإثمه فوق رأسه، وبما أن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة فهو محفوظ فى الأرض وفى السماء: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ وقد حفظه الله ـ تعالى ـ منزهًا عن عبث العابثين من شياطين الإنس والجن، وعن أى خلل أو نقص يمكن أن يطوله كما طال الصحف المُنزَّلَةَ من قبله.

(٥) الإيمان الكامل بأن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان من نطفة فقدره، أى حدد له صفاته الوراثية والعقلية، والجسدية، وحدد له جنسه، وأجله ورزقه، وشقى أم سعيد، ويسَّر له سبل الخروج إلى الحياة، وأساليب الهداية فيها.

(٦) التصديق بأن الموت حق على العباد، وأن البعث والنشور، والحشر والحساب حتمى عليهم كذلك.

(٧) التسليم بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء، وأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أوجد طعام كل حَىٍّ ومن الأحياء الإنسان وأنعامه، ونباتاته التى أنبتها الله ـ تعالى ـ لهم من الأرض بمختلف أشكالها، وألوانها، وطعومها، بقدرة فائقة تشهد له ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية.

(٨) التصديق بالآخرة وأهوالها، وبحتمية وقوعها، وبانقسام الناس فيها بين مؤمن مستبشر سعيد، وكافر شقى تعيس، وشتان بين المصيرين.

من الإشارات الكونية فى سورة عبس

(١) الإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة تحمل كل صفاته، وجميع المقدر له، من تلك الصفات الوراثية، البدنية منها والنفسية؛ لأن لفظ التقدير يعنى التروى والتفكر فى تسوية أمر ما، وتهيئته وتقديره، وقد يقصد بالتقدير هنا تحديد الصفات التى سوف تظهر على الجنين فى المستقبل والتى تعرف بالصفات السائدة، وكذلك الصفات المتنحية التى قد تظهر فى الأجيال المستقبلية من نسله، وبذلك يتم تقدير أوصاف الجنين وتحديدها لذاته ولنسله من بعده إلى يوم الدين.

ويتضمن التقدير الذى يحدث فى النطفة الأمشاج (اللقيحة) تحديد جنس الجنين ذكرًا كان أم أنثى، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

(٢) الإشارة إلى انتهاء فترة الحضانة الرحمية بولادة الجنين، وذلك بتذليل طريق خروجه من بطن أمه بيسر إلى الحياة الصاخبة من حولهما، وقد قدر الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إتمام هذه العملية بإفراز العديد من الهرمونات، والسوائل المخاطية والأغشية ولذلك قال ـ عز من قائل ـ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠].

(٣) التأكيد على حتمية الموت، وحقيقة القبر، وضرورة البعث والحساب والجزاء.

(٤) تقرير حقيقة أن الكثير من الناس تمضى بهم الحياة دون أن يعرف الغاية من وجوده فيها أو أن يحقق شيئًا من واجباته فينتهى أجله ليلقى الله ـ تعالى ـ وهو صفر اليدين، مثقل الكاهل بالذنوب ولذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣].

(٥) لفت أنظار الناس إلى جوانب الإعجاز العلمى فى توفير كل الأسباب اللازمة لخلق طعام الإنسان، وطعام أنعامه، وطعام كل كائن حى على وجه الأرض.

(٦) التلميح إلى دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء.

(٧) الإشارة إلى شق الأرض بواسطة إنزال الماء عليها أو ريها من أجل إعدادها للإنبات، أو شقها بواسطة البادرات النباتية الخارجة منها وكلاهما صحيح.

(٨) تقرير خلق مختلف أنواع النباتات، وإعطاء النماذج الأساسية لها التى يمكن أن تكون تمثيلا كاملا لمجموعات النباتات الراقية المزهرة، التى تشكل الغذاء الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه (من مثل الحبوب، والأعناب، والقضب (أى البقول والخضروات)، والزيتون، والنخل، والحدائق الغلب، والفاكهة والأب).

(٩) الاستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام فى يوم البعث بعد تحللها إلى تراب.

(١٠) وصف الهلع الذى يصيب الناس يوم البعث بأنه يجعل المرء يفر من أخيه، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]. وما جاء بعدها من آيات (٢٤ إلى ٣٢)، ولكن قبل ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآيات الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ﴾ يعنى: الكافر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف دبره الله؟ وقيل إلى مدخله فيه ومخرجه. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ الغيث ﴿صَبًّا﴾، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾: حب الزرع ﴿وَعِنَبًا﴾: كرومًا ﴿وَقَضْبًا﴾ يعنى بها: الرطبة، وأهل مكة يسمون القت: القضب ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ بساتين محوطًا عليها ﴿غُلْبًا﴾: غلاظًا يستظل بها ﴿وَفَاكِهَةً﴾ من ثمار الأشجار ﴿وَأَبًّا﴾: ما تأكله البهائم من العشب والنبات ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ تتمتعون بها وتنتفعون».

* وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظامًا بالية وترابًا متمزقًا، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أى أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ أى أمسكناه فيها فيدخل فى تخومها، فنبت الزرع وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القت أيضًا، ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل بلحا وبسرا، ورطبا وتمرا، ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه رب وخل ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أى بساتين، قال الحسن وقتادة: غلبًا نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل

ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿غُلْبًا﴾ الشجر الذى يستظل به، وقال عكرمة ﴿غُلْبًا﴾ أى غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: كل ما أكل رطبا، والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفى رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم، وعن عطاء كل شىء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفى، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى...».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ﴾ نظر اعتبار ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف قدر ودبر له. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ من السحاب على الأرض ﴿صَبًّا﴾ أى بغزارة. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا﴾. ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير. ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ هو: القت الرطب علفا للدواب. ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ أى: شجرتا الزيتون والنخل. ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ بساتين كثيرة الأشجار. ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ما ترعاه البهائم، وقيل التبن. ﴿مَتَاعًا﴾ متعة أو تمتيعًا. ﴿لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم».

*وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «وينتقل السياق إلى لمسة أخرى فى مقطع جديد... فتلك هى نشأة هذا الإنسان... فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه فى هذه الرحلة؟ وهى شىء واحد من أشياء يسرها له خالقه؟

هذه قصة طعامه مفصلة مرحلة مرحلة، هذه هى فلينظر إليها، فهل له من يد فيها؟ هل له من تدبير فى أمرها؟ إن اليد التى أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته، هى ذاتها اليد التى أخرجت طعامه، وأبدعت قصته... ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾، ألصق شىء به، وأقرب شىء إليه، وألزم شىء له.. لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر. لينظر إلى قصته العجيب اليسيرة، فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب، وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته، وكل خطوة من خطواتها بين القدرة التى أبدعته، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.. وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة، فى أية درجة كان من درجات المعرفة

والتجربة. فهى حقيقة يخاطب بها كل إنسان، فأما حين تقدم الإنسان فى المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهداً من هذا المطر الذى يتكرر اليوم ويراه كل أحد.

واستعار صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فرضًا علميا عن أصل ماء الأرض نقله عن كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» (تأليف أ. كريسى موريسون وترجمه محمود صالح الفلكى) بعنوان: (العلم يدعو للإيمان) ثم أضاف: ذلك كان أول قصة الطعام: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.. ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء فى أى صورة من صوره، وفى أى تاريخ لحدوثه، ولا أنه صبه على الأرض صبًا لتسير قصة الطعام فى هذا الطريق!.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾.. وهذه هى المرحلة التالية لصب الماء. وهى صالحة لأن يخاطب بها الإنسان الذى يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته، وتدبير غير تدبير. ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها. أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقًا بقدرة الخالق ـ سبحانه ـ وينمو على وجهها، ويمتد فى الهواء فوقها.. وهو نحيل نحيل، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة. ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقًا، وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف. وهى معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة، ويحس ما وراءه انطلاق القوة الخفية الكامنة فى النبتة الرخية.

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعنى له مدى آخر من التصور فى هذا النص، وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور. إنه قد يكون ذلك التفتت فى صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة...، وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التى يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التى كانت تكسو وجه الأرض وتكوّن قشرتها، حتى وجدت طبقة الطمى الصالحة للزرع. وكان هذا أثرًا من آثار الماء تاليًا فى تاريخه لصب الماء صبًا، مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذى تشير إليه النصوص.

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذى حدث، وهو الذى تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة فى القصة هى النبات بكل صنوفه وأنواعه التى

يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين، وأعمها فى طعام الناس والحيوان: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾.. وهو يشمل جميع ما يأكله الناس فى أية صورة من صوره، وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته. ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾.. والعنب معروف، والقضب هو كل ما يؤكل رطبًا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾... والزيتون والنخل معروفان لكل عربى، والحدائق جمع حديقة، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها. و(غلبا) جمع غلباء أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار. والفاكهة من ثمار الحدائق و(الأب) أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه: «﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ كيف دبر: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أنزلنا له الغيث من السماء إنزالا. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ شققناها بالنبات شقّا بديعًا، لائقًا بما يشقها منه صغرًا وكبرًا، وشكلاً وهيئة. ﴿حَبًّا﴾ ما يقتات به الإنسان ويدخره، من نحو الحنطة والشعير والذرة. ﴿وَعِنَبًا﴾ يتفكه به. ﴿وَقَضْبًا﴾ علفًا رطبًا للدواب ويسمى الفصفصة، وإذا يبس يسمى القت، وسمى قضبًا لأنه يقضب من النبات ليأكله مرة بعد أخرى كالكلأ والبرسيم. وقيل: القضب ما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضًا طريًا، كالبقول التى تقطع فينبت أصلها. ﴿وَحَدَائِقَ﴾ بساتين محوطة، جمع حديقة، وهى ما أحيط به من النخل والشجر، فإذا لم يحط فليس بحديقة، بل هو بستان، ومنه أحدقوا به أى أحاطوا به. ﴿غُلْبًا﴾ عظامًا، جمع أغلب وغلباء. والغلباء هى الحديقة الغليظة الأشجار الملتفة. وأصلها من الغلب ـ بفتحتين ـ بمعنى الغلظ، يقال: غلب أى غلظ عنقه، ومنه: الأغلب للغليظ الرقبة، وهضبة غلباء: أى مشرفة. ﴿وَأَبًّا﴾ الأب: الكلأ والمرعى، وهو ما تأكله البهائم من العشب، من أبه: إذا أمه وقصده، لأنه يؤم ويقصد. أو من أب لكذا: إذا تهيأ له، لأنه متهيىء للرعى. أو ما تأكله البهائم من العشب والنبات، رطبًا كان أو يابسًا. فهو أعم من القضب، أو هو التبن خاصة.

* وذكر كلٌّ من المنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلامًا مشابهًا لا أرى داعيًا لتكراره هنا.

* **أولاً: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾** [عبس: ٢٤].

اعتمد الإنسان فى طعامه أساسًا على النبات ولذلك تحدثت الآيات عن صب الماء من السماء صبًا، ثم عن شق الأرض شقًا، ثم عن عدد من النباتات وثمارها تغطى كل ما يحتاجه الإنسان وأنعامه من الطعام النباتى، والطعام النباتى يحمل فى طياته الإشارة إلى الطعام الحيوانى. وذلك لأن الحيوانات التى يأكلها الإنسان تعتمد فى غذائها على النبات وثماره. والطعام هو مصدر الطاقة اللازمة لمختلف الأنشطة فى جسم الإنسان، وللمحافظة على درجة حرارته، ولبناء الخلايا والأنسجة اللازمة فى مختلف مراحل نموه ولتعويض الفاقد منها باستمرار.

وجسد الإنسان يحتاج لوجوده حيا إلى الهواء، والماء، والطعام، فلو انقطع عنه الهواء لدقائق معدودة هلك بالاختناق، وإذا انقطع عنه الماء فإنه يمكنه تحمل ذلك لعدة أيام، وإذا انقطع عنه الطعام يمكنه البقاء حيا لعدة أسابيع، مع نقص حاد فى الوزن، وتدهور فى حالته الصحية إن لم يتدارك ذلك بتعويض سريع.

ويحتاج الإنسان فى طعامه إلى المواد الأساسية التالية:

(١) **الكربوهيدرات**: وهى مركبات عضوية مهمة تتكون جزيئاتها باتحاد ذرات الكربون مع كل من ذرتى الأيدروچين والأكسچين بنسبة وجودهما فى الماء (٢ : ١)؛ ووجود الكربوهيدرات فى كل من النبات والحيوان فى هيئات متعددة أبسطها السكريات الأحادية مثل سكر العنب (الجلوكوز)، وسكر الفاكهة (الفركتوز)، ويمكن للسكريات الأحادية أن تتحد مع بعضها البعض بواسطة روابط خاصة لتكون سكريات ثنائية مثل سكر القصب والبنجر (السكروز)، وسكر الشعير (المالتوز)، وسكر الحليب (اللاكتوز)، أو سكريات ثلاثية مثل سكر الرافينوز، أو سكريات عديدة مثل النشا، والسيليولوز. والنشا يوجد فى كثير من النباتات مختزنًا فى بذورها أو فى درناتها وفى العديد من ثمارها، بينما تتكون جدران الخلايا النباتية أساسا من السيليولوز وهو يوجد فى القش، والخشب، والجوت، وفى ثمار القطن، وفى المجموعات الخضرية للنباتات.

(٢) **البروتينات**: وهى مركبات عضوية تتكون جزيئاتها العملاقة باتحاد ذرات الكربون مع كل من ذرات الإيدروچين والأكسچين والنيتروچين، وقد تحتوى بعض جزيئاتها على ذرات من الكبريت أو الفوسفور. وتوجد هذه العناصر فى سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، ويبلغ عدد الأحماض الأمينية المعروفة والتى تشترك فى بناء البروتينات عشرين حمضا، وترتبط مع بعضها البعض برابطة خاصة تعرف باسم «رابطة الپيپتيد» (**Peptide Bond**)، ويلتف الجزىء البروتينى على ذاته فى هيئة لولبية أو حلزونية. وتوجد البروتينات فى أنواع بسيطة تتكون من الأحماض الأمينية فقط، وأنواع معقدة (مقترنة) يدخل فى بنائها مجموعات من مركبات كيميائية أخرى. وتوجد البروتينات فى أنسجة الكائنات الحية وفى جبلتها (البروتوپلازم) وتلعب أدواراً مهمة فى العديد من أنشطتها الحيوية مثل الدعم والحركة فى العظام والعضلات، والنقل والاتصالات فى الدم وفى الأعصاب، وفى كتابة الشيفرة الوراثية، وفى تحفيز مختلف التفاعلات الحيوية مثل إفراز الإنزيمات وبعض الهرمونات.

(٣) **الزيوت والدهون**: وتتكون أساسًا من اتحاد ذرات الكربون مع ذرات كل من الإيدروچين والأكسچين بنسب أعلى من نسب وجودهما فى كل من الماء والكربوهيدرات، وبعض الدهون يحتوى بالإضافة إلى ذلك على عنصرى الفوسفور والنيتروچين. والزيوت والدهون لهما تركيب كيميائى متشابه، فإذا بقى هذا التركيب سائلا عند درجة عشرين مئوية سمى زيتًا، وإذا بقى جامداً سمى دهنا، والدهون تعرف باسم الجليسريدات لتكونها من اتحاد بعض الأحماض الدهنية مع الجليسرين. وتضم الشموع إلى مجموعة الزيوت والدهون تحت مسمى «الليپيدات» (**Lipids**).

وبعض الثمار النباتية مثل الزيتون، والسمسم، والفول السودانى، وفول الصويا، والخروع، وبذور الكتان، وبذور القطن، وبذور دوار الشمس، وثمار كل من نخيل الزيت، وجوز الهند؛ وبعض أجنة الحبوب مثل القمح، والذرة، والأرز، تعتبر من أهم مصادر الزيوت النباتية.

وهذه المركبات التى تدخل فى طعام الإنسان من الكربوهيدرات إلى البروتينات إلى الدهون على قدر هائل من الانتظام والدقة والتعقيد فى بنائها، مما يقطع بأنها لا

يمكن أن تكون قد أوجدت نفسها بنفسها، أو وجدت بمحض المصادفة، ولذلك تشهد لخالقها العظيم بطلاقة القدرة، وإبداع الصنعة، وإحكام الخلق، ودقة التقدير، ومن هنا كان لفت نظر الإنسان إلى طعامه . . . . !!

و(الطعام) و(الطعم) هو كل ما يؤكل، و(الطعم) تناول الغذاء، و(الطعمة) المأكلة، ويقال: (طعم) (طعمًا) إذا أكل أو ذاق فهو (طاعم)، و(استطعمه) أى سأله أن يطعمه فأطعمه. وقد يستعمل الفعل (طعم) في الشراب أيضًا لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان طالوت لجنوده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقول رسول الله ﷺ في وصفه لماء زمزم «**إنه طعام طعم وشفاء سقم**».

ولذلك بدأت هذه المجموعة من الآيات التي تتحدث عن الطعام في «سورة عبس» بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.

ومن الثابت علميًا أن الماء سابق في وجوده على خلق الحياة؛ لأن الحياة الأرضية التي نعرفها لا تقوم بغير الماء الذي أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أصلاً من داخل الأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١].

وعلى الماء قامت حياة كل من النبات والحيوان والإنسان، وأعد الله ـ تعالى ـ للإنسان كل صنوف الطعام التي يحتاجها في حياته، وأولها النباتات ومن هنا كانت الإشارة إليه لينظر إلى طعامه نظر تدبر وتفكر واعتبار.

ثانيًا: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]:

تعتبر دورة الماء حول الأرض من دلالات طلاقة القدرة الإلهية، فقبل إخراج ماء الأرض من داخلها عبر فوهات البراكين، كان الله ـ تعالى ـ قد هيأ لها سقفًا باردًا تتكثف عنده يتمثل اليوم في الحد العلوى لنطاق الرجع ـ نطاق التغيرات المناخية ـ الذي تصل عنده درجة الحرارة فوق خط الاستواء إلى (٦٠) درجة مئوية تحت الصفر، ولولا هذه الحقيقة لارتفع بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى طبقات الجو العليا وانفلت من نطاق جاذبية الأرض إلى فسحة الكون، ولو حدث ذلك ما كنا ولا كانت الحياة من حولنا على الإطلاق.

وعند وصول بخار الماء المتصاعد من الأرض إلى الحد الأعلى لنطاق الرجع تكثف وعاد إلى الأرض مطرًا، وساعد تكرر نزول المطر على تبرد الغلاف الصخرى للأرض ، كما ساعد على سيلان الماء على سطح الأرض شاقًا أودية له على هيئة أعداد من الأنهار والجداول، وساعد كذلك على تحركه إلى منخفضات الأرض ليملأها بالماء مكونًا البحار والمحيطات والبحيرات وغير ذلك من تجمعات الماء على سطح الأرض، وبمجرد تكون ذلك بدأت أشعة الشمس فى تبخير هذا الماء ليرتفع على هيئة بخار يتعلق بأجزاء من الغلاف الغازى للأرض مكونًا السحب التى يتكثف منها الماء ليعود إلى الأرض مطرًا، أو بردًا، أو ثلجًا بإذن الله ـ تعالى ـ.

وقد استمرت دورة الماء حول الأرض منذ أن أخرج الله منها ماءها وسوف تستمر إلى أن يرث الأرض ومن عليها. وبهذه الدورة المعجزة التى يتحرك بها الماء من غلاف الأرض المائى إلى غلافها الهوائى يتطهر مما تجمع فيه من ملوثات، وأملاح أذابها من الغلاف الصخرى للأرض، أو علقت به فى أثناء جريانه على سطحها، أو من بقايا الكائنات الحية التى تحيا وتموت فى الأوساط المائية ببلايين الأفراد فى كل لحظة.

وتمتد دورة الماء من نحو الكيلومتر الواحد تحت سطح الأرض إلى ارتفاع يقدر بنحو خمسة عشر كيلومترًا فوق مستوى سطح البحر فى المتوسط، فتعمل على تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسبة معينة من الرطوبة فى كل من الغلاف الغازى للأرض وتربتها، وغالبية صور الحياة إن لم تكن جميعها خاصة فى المناطق الصحراوية تحتاج إلى تلك النسبة من الرطوبة.

وبواسطة هذه الدورة المائية التى استمرت على مدار عمر الأرض المقدر بنحو خمسة بلايين من السنين تمت تسوية سطح الأرض، وشق الفجاج والسبل فيها، كما تم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وخزن قدر من هذا الماء فيها وفى غيرها من صخور قشرة الأرض ، وتكوين أعداد من الصخور الاقتصادية والركازات المعدنية المهمة.

ولولا هذا الإعداد الربانى الدقيق ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة للعمران، ولذلك يمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو صاحب الفضل والمنة بقوله

العزيز: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أى أنزلنا الغيث من السماء إنزالا؛ لأن صب الماء هو إراقته من أعلى، فإذا علمنا أن كمية الماء الأرضى تقدر بنحو (١,٤) بليون كيلومتر مكعب، وأن من هذه الكمية الهائلة التى أخرجها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لنا من داخل الأرض، يتبخر منها سنويًا ٣٨٠ ألف كيلومتر مكعب، ثم تعود كلها إلى الأرض مرة أخرى ماءً طهورًا، يوزعه الله ـ تعالى ـ بعلمه، وحكمته، وقدرته.

إذا علمنا ذلك لأدركنا قيمة هذه النعمة الإلهية الكبرى التى وصفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾، وقوله ـ عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩].

وصب الماء إراقته من أعلى، أى إنزاله من السماء بغزارة كالغيث، والصبيب هو المصبوب من ماء المطر، ولولا دورة الماء حول الأرض لفسد كل مائها الذى هو شريان الحياة، والذى يحيا ويموت فيه بلايين الأفراد من الكائنات الحية فى كل لحظة. ولا يستطيع التحكم فى دورة الماء حول الأرض إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد من الخلق أن ينزل قطرة من ماء السماء حيث أو متى يشاء، ومن هنا كانت الإشارة إلى إنزال ماء السماء على أنها من أوضح الدلالات على طلاقة القدرة الإلهية.

ثالثا: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦]:

ترد كلمة الأرض فى القرآن الكريم بثلاثة معان محددة لتعنى كوكب الأرض فى مجمله، أو الغلاف الصخرى المكون للبابسة التى نحيا عليها، أو قطاع التربة الذى يغطى ذلك الغلاف الصخرى فى بعض أجزائه، كما هو واضح من الآية الكريمة التى نحن بصددها لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾. وذلك لأن الحب لا ينبت إلا فى التربة، وكذلك الغالبية الساحقة من النباتات. وتتكون تربة الأرض بالتفاعل المعقد بين أغلفتها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحيوية؛ مما يؤدى إلى التفكك الفيزيائى والتحلل الكيميائى والحيوى لصخور الأرض بواسطة عوامل التعرية

المختلفة، وتلعب الكائنات الحية من مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب، وجميع النباتات، وبعض الحيوانات دورًا رئيسيًا فى تكون التربة التى تعتبر مصدر الغذاء والماء لحياة كل النباتات الأرضية، وبالتالى لحياة كل من الإنسان والحيوان.

وتتكون التربة الأرضية فى قطاعها العلوى أساسًا من معادن الصلصال، وحبات الرمل، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم، وإن كانت أنواع التربة تتعدد تعددًا هائلاً بتعدد أنواع الصخور التى تنشأ عنها، والظروف الطبيعية والكيميائية التى تتعرض لها، وأنواع الكائنات الحية التى تزخر بها، والتى تلعب أدوارًا رئيسية فى إعدادها.

وعلى الرغم من ذلك تبقى المعادن الصلصالية قاسمًا مشتركًا فى معظم أنواع تربة الأرض، والمعادن الصلصالية لها شراهة شديدة للماء، فإذا وصلها امتصته بسرعة فتميأت مما يؤدى إلى زيادة فى حجمها فتهتز وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة، فتنشق لتفسح طريقًا آمنًا لسويقة النبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة فى التربة، ومن هنا كانت تلك الإشارة القرآنية المعجزة فى هذه السورة المباركة التى جمعت بين صب الماء، وشق الأرض، والإنبات فى تسلسل دقيق معجز يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾

[عبس: ٢٥: ٢٧].

ومن أسباب اهتزاز التربة وربوها (أى ارتفاعها إلى أعلى) حتى تنشق دقة حجم حبيبات المعادن الصلصالية (أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) التى تتحول إلى الحالة الغروية بمجرد اختلاط الماء بها بكمية كافية، وهى حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهات، وعلى كل المستويات فى حركة دائبة تؤدى إلى اهتزاز التربة وانتفاخها وانتفاضها بشدة حتى تنشق، وكلما زادت كمية الماء المختلط بالتربة زاد اهتزازها وارتفاعها وسارع ذلك فى تشققها بإذن الله ـ تعالى ـ.

والشق هو واحد الشقوق، وهى الفتحات الطولية الواقعة فى الشىء، ولعل المقصود بالفعل (شققنا) هنا هو النحر الرأسى لماء المطر حينما يصب على الأرض

صبًا، وقد ثبت أن ماء المطر الساقط على الأرض يستطيع إحداث شقوق فيها تتراوح أعماقها بين أمتار قليلة والمائتى متر، مما يعين على تخلل الماء للصخور المنفذة ليكون المخزون المائى تحت سطحها، ويجدد عذوبته ومحتواه من غاز الأكسچين.

وكلما اتصلت هذه الشقوق (الناتجة عن الحفر الرأسى لماء المطر النازل من السماء كالغيث) مع أشباهها من فواصل الصخور وتشققاتها، ومستويات التطبق فى الصخور الرسوبية، وكهوف الإذابة فى كل من الصخور الكلسية والملحية وما يرتبط بها من حفر، وممرات، ودهاليز، وأغوار، قد يصل طولها إلى عشرات الكيلومترات، أفسح كل ذلك مجالاً رحبًا لتجوية الصخور ولخزن الماء تحت سطح الأرض، وتعظيم دوره فى توسيع تلك الشقوق والحفر، بمختلف صور التجوية الميكانيكية (من مثل فعل الصقيع) والتجوية بفعل الكائنات الحية، والتجوية الكيميائية (عن طريق الإذابة، والكربنة، والإحلال، والتميؤ، والأكسدة) التى تضعف من تماسك الصخر، وتعين على تشققه وتفتته وتكون التربة من هذا الفتات، كما تعظم من دور الماء تحت سطح الأرض، فى المساعدة على إمداد نباتات الأرض بما تحتاجه من ماء وعناصر غذائية، وهذا المعنى يبدو لى أنه الأقرب - والله تعالى أعلى وأعلم - وذلك لوروده بعد الإشارة إلى صب الماء من السماء صبا. ولكن لا يستبعد أيضا أن يكون المقصود بشق الأرض بعد صب ماء المطر عليها، هو تشقق التربة نتيجة لاختلاطها بماء السماء، والتربة الزراعية يغلب على تركيبها المعادن الصلصالية التى تتكون أساسا من سليكات الألومنيوم المميأة، والمتراصة فوق بعضها البعض فى رقائق دقيقة، وهذا المركب الكيميائى له شراهة شديدة للماء، فإذا وصله البلل انتفش وانتفخ، وارتفع إلى أعلى حتى ترق التربة رقة شديدة ثم تنشق لتفسح طريقًا سهلاً للسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة فى التربة لتصل السويقة إلى ما فوق سطح الأرض. ويعين على ذلك إزاحة الماء لقدر من الهواء الموجود بين رقائق الصلصال، والحركة البراونية للمادة الغروية فى دقائق التربة من المعادن الصلصالية، وتنافر الشحنات الكهربية المتشابهة على أسطح تلك الرقائق مع بعضها البعض، ومع قطبى جزئ الماء المزدوج القطبية، ونشاط كل صور الحياة الكامنة فى قطاع التربة وفيها البلايين من الكائنات الحية الكامنة، فإذا وصلها

الماء استيقظت ونشطت ومن ذلك بذور النباتات، وبيض بعض الحيوانات ويرقاتها، وبعض البكتيريا والفطريات وغيرها، ومخزون التربة من هذه الكائنات يتراوح ما بين الميكروسكوبية والفقارية، وقوة إنبات البذور من القوى التى لايمكن الاستهانة بها.

* رابعا: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣٢]

وهذه الآيات احتوت كل صنوف النبات الأساسية التى يحتاجها الإنسان وأنعامه فى طعامهم، والتى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

(١) فلفظة (الحب) تشمل جميع أنواع الحبوب (من ذوات الفلقة الواحدة) مثل القمح والشعير، والذرة، والشوفان والأرز وغيرها، من النباتات الزهرية ذات الفلقة الواحدة، والتى تجمع فى العائلة النجيلية، وهى أهم عائلات النبات من الناحية الاقتصادية للإنسان ولأنعامه لأنها تشمل أكثر من سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التى تضم محاصيل الحبوب، وعددًا من المحاصيل الأخرى المهمة من مثل قصب السكر وبعض النباتات الخشبية مثل الخيزران.

و تضم العائلة النجيلية كذلك كثيرًا من حشائش المراعى التى تصلح لرعى الحيوانات آكلة الأعشاب من مثل الأنعام. ومن هذه الحشائش الحولى والمعمر، وتغطى نباتات العائلة النجيلية أكثر المساحات المزروعة على سطح الأرض.

(٢) والتعبير القرآنى: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أيضًا تعبير معجز لأن (العنب) يشير إلى رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هى رتبة العنابيات، وتشمل عائلتين مهمتين هما: عائلة العناب وتضم (٤٥) جنسًا، و(٥٥٠) نوعًا من أنواع النباتات واسعة الانتشار من مثل العناب، والنبق، وعائلة الأعناب، وتشمل(١١) جنسًا، وأكثر من (٦٠٠) نوع من أنواع العنب وهو واحد من أهم المحاصيل النباتية.

أما (القضب) و(القضبة) فهو الرطب من ثمار النباتات، و(القضب) أصلا هو القطع، و(اقتضبه) أى اقتطعه، ولذا استعير (القضب) لما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضا طريًا كالبقول التى تقطف ثمارها فينبت مكانها، أو تقطف النبتة

فينبت أصلها، وفى ذلك إشارة إلى العائلة البقولية، وهى ثانى أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه فى طعامه، بعد العائلة النجيلية، وهى عائلة نباتاتها منتشرة فى جميع أنحاء العالم، وتشمل نحو (٦٠٠) جنس، و(١٢,٠٠٠) نوع من أنواع النباتات ذات الفلقتين وتشمل فيما تشمل: الفول، العدس، الحمص، الفاصوليا، اللوبيا، البازلاء، فول الصويا، الفول السودانى، الترمس، الحلبة، الخروب، التمر هندى، وغيرها، وكلها من ذات الثمار القرنية، ولذلك تعرف أحيانًا باسم «العائلة القرنية».

كذلك تشمل هذه العائلة نبات البرسيم الحجازى الذى يعتبر علفًا رئيسيًا للحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام، وتشمل غيره من أعشاب المراعى والأعلاف، كالكلأ، كما يشكل عددًا من نباتات الزهور، والنباتات الطبية، والقضب عامة هو العلف الرطب للأنعام والدواب.

(٣) والتعبير القرآنى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾: يشير إلى عائلتين من أهم العائلات النباتية هما العائلة الزيتونية، والعائلة النخيلية، والأولى تشمل (٢٢) جنسًا، وأكثر من (٥٠٠) نوع من أنواع الأشجار الزيتونية وهى أشجار معمرة، تعيش لأكثر من ألفى سنة. وشجرة الزيتون شجرة مباركة كما وصفها القرآن الكريم ونعتتها أحاديث رسول الله ﷺ. أما العائلة النخيلية فتشمل حوالى (٢٠٠) جنس، وأكثر من أربعة آلاف نوع من أنواع النخيل، وغيره من الأشجار والشجيرات القائمة والمتسلقة المنتشرة فى كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة، وأشجار النخيل من أكثر النباتات احتمالاً للجفاف والملوحة، وتنمو فى المناطق الحارة الجافة والمعتدلة، وثمارها ومنتجاتها تعتبر من أهم المصادر النباتية التى اعتمد عليها الإنسان فى حياته منذ وطئت قدماه هذه الأرض.

(٤) والتعبير القرآنى: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أى حدائق عظامًا وهى البساتين المحوطة ذات الأشجار الغليظة، الملتفة الأغصان. وهذه تشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات، خاصة نباتات الظل، والزينة، الأخشاب، كما تشمل الكثير من نباتات الثمار المختلفة التى لا تنضوى فى المجموعات السابقة.

(٥) أما التعبير القرآنى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فإن الفاكهة هى كل ما يتفكه به الإنسان من الثمار، ويتمتع به من كل رطب لذيذ الطعم خاصة الثمار حلوة المذاق؛ لأنه يقال فى العربية تفكه بالشىء أى تمتع به، وقيل فى الفاكهة : إنها الثمار كلها ما عدا العنب والرمان.

وأوضح الأمر أن لفظة (فاكهة) هنا يقصد بها نباتات الفاكهة المختلفة التى لا تحتويها المجموعات السابقة من مثل العائلات التوتية (وتشمل التين والجميز والتوت، وغيرها)، والوردية (وتشمل المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكريز، واللوز فيما يعرف باسم العائلة المشمشية) والتفاح، والكمثرى، والبشملة، والسفرجل (فيما يعرف باسم العائلة التفاحية) ومن مثل العائلة السذبية (عائلة الموالح) وغيرها .

أما (الأب) فهو الكلأ والمرعى، وما تأكله البهائم كالأنعام والدواب من غير ذلك من العشب، ومختلف أجزاء النبات رطبًا كان أو يابسًا (مثل التبن والدريس) وهو فى ذلك أعم من القضب.

وهكذا نرى فى هذا التسلسل المعجز لخمس آيات قصار لا تشغل أكثر من سطرين استعراضًا لأهم النباتات التى تشكل الطعام الرئيسى لكل من الإنسان وأنعامه، ولذا ختمت سورة «عبس» بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ٣٢]. وهذه الحقائق العلمية لم تعرف إلا فى القرن العشرين، وذلك لأن علوم تصنيف الحياة بصفة عامة، وعلم تقسيم النبات بصفة خاصة هى علوم مستحدثة فى تاريخ الإنسان، بدأت مع منتصف القرن الثامن عشر الميلادى، ولم تتبلور إلا فى أواخر القرن العشرين، واستعراض الآيات التى نحن بصددها لأهم مجموعات النبات فى طعام كل من الإنسان وأنعامه بهذه الإحاطة، والدقة، والشمول، فى كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرنًا على نبى أمى، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين. لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. . والحمد لله رب العالمين.

* * *